الاسم واللقب: حياة ذيبون

الدرجة العلمية: أستاذ مساعد – أ –

التخصص العلمي: نظرية الأدب وقضايا النقد

الجامعة: المدرسة العليا للأساتذة– العلمة –

الدولة: الجزائر

الهاتف: 0792261760

البريد الإلكتروني: hatetdhiboun@yahoo.fr

محور المداخلة: عتبات النص الرحلي

عنوان المداخلة: التعالقات الخطابية في أدب الرحلة

قراءة في جماليات النص الرحلي

الخطة:

تمهيد: الرحلة مفرد بصيغة الجمع

التعالقات الخطابية في أدب الرحلة

في البدء كانت المثاقفة/ قراءة في وظيفة المثاقفة في أدب الرحلة

أدب الرحلة نص السرديات

السرد العجائبي في أدب الرحلة . مقاربة ثقافية.

تمهيد: الرحلة مفرد بصيغة الجمع

الرحلة مفرد في داله، لكنه متعدد في مدلولاته . فله أكثر من تحل. فمن رحلة الإنسان بحثا عن مواطن الكلأ ، ووصف ما يلاقيه من حيوان ومظاهر الطبيعة، إلى رحلة الإنسان الأبدية المحكومة بفضول التعرف على كل ما هو مختلف وغير مألوف. فتنعمه بنعمة بالاستقرار لم تقتل فيه جذوة الاستطلاع. إذ " تشير كتب التاريخ الطبيعي والانثروبولوجيا وغيرها إلى أن الإنسان لم يتوقف عن الحركة والتنقل ، حتى بعد أن تعلم الزراعة وعرف كيف يستقر ويبني ويؤسس المجتمعات [1] "

بل إن الرحلة تأخذ بعدا أعمق في مسيرة الإنسان . فهي قدره الذي يلازمه منذ الولادة إلى الوفاة وما بين الميلاد والموت أيضا لا تنفك حياته أن تكون مجموع رحلات ظاهرة وباطنة . ف "لحظات ميلاده تعد رحلة من رحم الأم إلى دنيا البشر، وما وفاته ودفنه إلا رحلة ينتقل فيها من دنيا البشر إلى رحم الأرض تمهيدا لرحلة نهائية وسرمدية تبدأ يوم ينفخ في الصور، وهناك رحلات أخرى متباينة على طريق العلم من مرحلة إلى مرحلة ، وعلى طريق النضج من عمر إلى عمر، وفي إطار التشكيل الاجتماعي هناك رحلة من العزوبة والفردية إلى الزواج وتكوين الأسرة ، وهناك رحلات داخل الوطن ،كالانتقال من قبيلة إلى أخرى أو من القرية إلى المدينة أو من البدو إلى الحضر ، ورحلات من داخل الوطن إلى خارجه ، وتتسع مساحة الحركة وتمتد الرحلة لتصبح رحلة من الأرض إلى القمر والكواكب [2].

إذن ، فالرحلة تتعدد بتعدد المراحل العمرية والنفسية والاجتماعية للإنسان . وقد يضيق كما قد يتسع معناها باختلاف سياقات استعمالها. إلا أن الأكيد أن الرحلة بتعدد مدلولاتها ، وباختلاف سياقات استعمالها، تعكس فعلا تثاقفيا بين الأنا والآخر .

يعد مفهوم المثاقفة من المفاهيم الأكثر تداولا في تضاعيف الفكر المعاصر حيث ظهرت إتجاهات فلسفية تنادي بإرساء مبدأ الحوار بين الأنا والآخر، وتدعو إلى الهجنة* الثقافية أساسا حقيقيا للهويات والتخلص من أدلوجة الهوية الصافية . أمام هذه الدعاوى عرفت نظرية صراع الحضارات تراجعا كبيرا بعد تعالي أصوات تنادي بالحوار والتعايش بين جميع الثقافات.

---

[1]- فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط 2، جمادى الأولى 1423هـ- يوليو 2002م، ص 17.

[2]- المرجع نفسه ص ص 18-19.

* الهجنة لا تؤدي بالضرورة دائما إلى السيطرة والعداوة، بل تؤدي إلى المشاركة، وتجاوز الحدود، وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة.

من كتاب : إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية ، ص10.

والمتأمل في أدب الرحلات، يجد هذا النوع من الكتابة ممارسة فعلية لفعل التثاقف ، ذلك أنه كتابة تعنى بنقل كثير من الحقائق والتواريخ عن مختلف بلدان العالم وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية ....فهل يحملنا هذا على القول بأنه في البدء كانت المثاقفة؟

من جهة أخرى كانت العادات و التقاليد التي نقلها الرحالة في أدبه تختلف إن قليلا أو كثيرا عن عادات البلاد التي جاء منها الرحالة.هذا جعل الرحالة يقع في شراك النرجسية وتضخم الأنا، لهذا صبغ جزء من أدب الرحلات بالعجيب والغريب فكان متحاملا على الثقافات المغايرة لثقافة الرحالة.

إذا كان ذلك كذلك، هل يدفعنا هذا إلى إقرار مبدأ الصراع بين الثقافات ويحملنا على القول بأنه في البدء كان الصراع؟

إن غاية البحث هاهنا لا تروم البحث في الأصل الأول للأفكار وتبين أسبقية التثاقف على الصراع أو العكس في أدب الرحلة، لأن الأفكار لا أصل لها كما أقر بذلك أعلام الحداثة، إنما القصد الحفر في هذه الأسئلة لنلغي أحادية الفكر ، ونؤسس للمختلف فيه، فالفكر لا يتأسس في تربة المؤتلف، إنما يتأسس في تربة الاختلاف والتعدد .

التعالقات الخطابية في أدب الرحلة:

خلق الإنسان مجبولا على حب الاطلاع و الاستكشاف ، فراح يلبي هذه الغريزة بحثا في كل مرة عن فسحة جديدة للعيش، وقد حمله هذا الشعور على السفر في بقاع الأرض لمعرفة ما خفي من أسرار الكون وما جد في عوالم الكائنات ، والتعرف على طبائع البشر وعاداتهم وطرائق تفكيرهم...والانفتاح على ثقافات جديدة لا قبل له بها. ولأن صفة الترحال متجذرة في النفس البشرية حق أن ينعت هذا الإنسان بالكائن السندبادي .

لا غرو إذن أن " الحل يفضل الترحال مثلما تفضل الحضارة البداوة[1] " فرغم أن الحل ضروري لتحقيق شرط الحياة المستقرة، إلا أن الترحال يغدو أهم لأن الحياة تفقد معناها إذا لم تنفخ فيها روح التجديد بين الفينة والأخرى .

وقد كانت نتيجة تلك الأسفار والرحلات التي خاض غمارها الكائن السندبادي؛ ظهور لون من الكتابة سمي: أدب الرحلة فما المقصود بهذا النوع من الكتابة؟

---

[1]– عبد السلام بنعبد العالي: ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1994،ص 22

نشير بداية أن أدب الرحلة مصطلح يتعالى على الضبط والتحديد لأنه كتابة تتعالى على التصنيف " ضمن خانة أجناسية محددة. فضمير المتكلم المهيمن على الفعل السردي ، وتطابق المؤلف والسارد والشخصية تمنح الرحلة مميزات تجعلها قريبة من السيرة الذاتية دون أن يجرؤ أحد على وضعها في هذه الخانة. والتواريخ الدقيقة التي تصاحب الأحداث والوقائع في غالبها تحيل على طبيعة المذكرات أو اليوميات ، غير أن القراءة المتأنية تجعل الدارس مترددا في وضعها هناك . فارتباطها بالسفر ومتابعة وقائع الرحلة ومشاهداتها منحت الرحلة ملامح خاصة على مستوى تجلياتها الخطابية؛ وكانت نصا مرنا مفتوحا يستوعب كل ما يدور في ذاكرة السارد- الرحالة وهو يستحضر الأحداث والوقائع والأماكن والفضاءات التي ترسخت بذاكرته، إلى جانب ما جادت به قريحته أو قريحة من رافقه من إبداعات شعرية أو نثرية ترتبط بالشوق والحنين إلى الأحباب ومكاتبتهم ، دون أن نغفل خطاب المعرفة التي يسعى السارد- الرحالة تحصيلها وهو ينتقل بين مجالس العلماء والأدباء في كل فضاء يحل به. [1] "

وتأخذ الإشكالية بعدا أعمق وأخطر عندما نلاحظ التعدد مس المصطلح ناهيك عن التعريف، فهذا المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي يسم أدب الرحلة بالأدب الجغرافي ، و وسمه الناقد الجزائري عبد الله الركيبي بالأدب السياحي [2] . ولعل الملاحظ من كل هذا أن مادة الرحلة معين عزير لعديد الحقول الدراسية. فلماذا لم تتفق الدراسات على دال واحد ومدلول واحد لهذا النوع من الكتابة؟ ثم هل نعتبر أدب الرحلة مقدمة العلوم ؟ والأهم من كل هذا هل كل ما دون من مادة رحلية يصنف ضمن جنس أدب الرحلة؟

إن التعالقات الخطابية في نص الرحلة جعل منها نصا كوكبيا،تتداخل فيه الأجناس والخطابات وهذا يحملنا على القول: إن الهجنة الخطابية سابقة على نظرية الأجناس ففي البدء كانت الهجنة وما نظرية الأجناس إلا إجراء منهجي وضعه أهل المنهجية للوقوف عند الخصائص الدقيقة لكل جنس على حدة، بغية تحقيق مبدأ الصرامة المنهجية التي تضمن لكل جنس خصائصه المتفردة . ذلك أن الدرس النقدي – في إقامة أحكامه – بحاجة إلى الدقة المنهجية.

إن الكتابة محكومة سلفا بقانون الهجنة، ويأتي نص الرحلة ليؤكد ذلك إذ يمكن أن تستثمر مادته من قبل المؤرخ الذي يجد في الرحلة مادة تاريخية خصبة " للاستدلال على أحداث ووقائع حقبة زمنية بعينها، ويمكن أن نجعل مما تتوفر عليه من شواهد على الأحداث موضع مقارنة مع ما جاء في مصادر تاريخية أخرى تسانده أو تعارضه ...[أما الجغرافي] فهو يرى في ما تقدمه الرحلة من أوصاف للفضاءات ،

---

[1]- سعيد جبار: من السردية إلى التخيلية بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، دار الأمان، الرباط، ط1، 1434هـ- 2013م، ص 173.

[2]- يوسف وغليسي: في ظلال النصوص تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر، الجزائر، ط1، 1430هـ- 2009م، ص 296.

ومعارف حول الطبيعة في بلد من البلدان أرضية ملائمة للمقاربة الجغرافية ... ويتموقع إلى جانب هؤلاء جميعا الأثنوغرافي السوسيولوجي الذي يرى في الرحلة معارف مهمة تصور عادات الشعوب والأمم والقبائل في زمنها ، وبالتالي تكون حافزا للمقارنة بين مجموعة من الأمم والشعوب من خلال ما ورد عنها في رحلة من الرحلات [1] "

كل هذه الخطابات وأخرى تنسجم لتشكل في النهاية نص الرحلة في نسخته المكتملة. لكن ألا يمكن لهذا النص أن يكون محل معاينة ناقد الأدب ؟ ألا يمكن لنص الرحلة أن يكون مصدر غواية السردي فيجذبه إلى مناطقه المغيبة؟ وإذا كان ذلك كذلك هل تستهوي المادة الرحلية ناقد الأدب أم أن في الرحلة جانبا آخر غير المادة يستأثر باهتمام دارس الأدب ؟

تحمل الرحلة معاني التنقل والحركة والفعل، وهذه الدلالات تجعل الرحلة حبيسة المعنى المادي إلا أن فعل الترحل متى بتر من فعل التلفيظ ظل تجربة فردية ليس إلا. وحتى تستحيل الرحلة تجليا نصيا يجب أن تتوسل بالخطاب،ولكل خطاب خصائص ومواصفات تضمن له الفرادة والاستقلالية عن غيره، وانطلاقا من خصائص كل خطاب؛ تنماز الأجناس بعضها عن بعض. إلا أن التمايز لا يلغي صفة التعالق بين الخطابات.

وقد أغفلت عديد الدراسات هذا الجانب -على أهميته- فلم تميز بين الرحلة كفعل والرحلة كخطاب. ويأتي سعيد يقطين في طليعة الباحثين الذين بحثوا التمايز بين فعل الرحلة وخطاب الرحلة ، ف" الفعل تقوم به ذات تاريخية محملة بأحاسيس وانفعالات ورؤيات معينة. أما الخطاب فينجزه مرسل ينتج ملفوظاته وفق قواعد خاصة وغايات محدودة تتعين في علاقتها بالمرسل إليه . وبين الفعل والخطاب مسافة زمانية . فالأول سابق والثاني لاحق : فالذات التي رأت أو ترى ليست هي الذات التي تتكلم [2] "

إذن، ليس كل ما دون من مادة رحلية، خطاب رحلة بالضرورة ، هذا يفترض البحث في الخصائص التي تميز خطاب الرحلة، حتى إذا جلينا تلك الخصائص أمكننا حينئذ معاينة وفحص خطاب كل مادة رحلية على حده؛ فما وافق الخصائص الموضوعة اعتبرناه أدب رحلة، وما خالفها وضعناه في دائرة الجنس المناسب له. بهذه الطريقة فقط نخلص أدب الرحلة من تلك الكتابات التي علقت به ،ذلك أن عديد كتب الرحلات كان خطابها أميل ما يكون إلى الخطاب التاريخي التقليدي – مثل كتاب مروج الذهب للمسعودي فهل نعتبرها خطاب رحلة؟

---

[1] – سعيد جبار: من السردية إلى التخيلية بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، ص 174.

[2]– سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات ، دار الأمان، الرباط، ط1433،1هـ- 2012م، ص 175.

إن البحث في خصائص خطاب الرحلة من مهام السردي ف" السردي يشتغل بموضوع الخطاب وليس الرحلة (فهي مادة) . وبهذا التمييز يختلف عمل السردي عن عمل غيره من الباحثين الذين اهتموا بالرحلة باعتبارها مادة ، ولم يلتفتوا إلى خطابها، فكانت حصيلة أعمالهم أن انشغلوا بعمل أي رحالة، ولم ينتبهوا إلى نوعية الخطاب الذي ينجزه ولما كانت هذه الخطابات متعددة ومتنوعة ومختلفة تباينت تسمياتهم* للنوع المتعلق بالرحلة [1]"

إن البحث في آليات كتابة نص الرحلة من منظور عمل السردي ، يجعل هذا النص منتسبا " إلى التراث النثري بشكل عام باعتباره سردا ووصفا يعمدان إلى صياغات مشاهد رؤيوية أو مروية أو حلمية تنحدر من ذاكرة – في بعض الحالات – ذات جذور في الواقع المادي [2]

كما أن الناقد الأدبي في حواره مع نص الرحلة ، لا يروم تبين الحقيقة ومحاكمة هذا النص بميزان الصدق أو الكذب، ومدى مطابقته للحقيقة الواقعية. فذلك جزء من عمل المؤرخ. " إن أسئلة النص الرحلي حينما يطرحها ناقد أدبي لا يتوخى منها التقييمات ومحاكمة النوايا والتخيلات ، وإنما يندمج في تحليل البناءات الخطابية في امتداداتها الأفقية والعمودية ، سواء مع أسئلة المرحلة الثقافية والسياسية أو الأسئلة الجديدة التي تحتوي على نباهة فريدة من مثل أسئلة الغيرية والهوية والمحمولات الثقافية والأيديولوجية في النص الرحلي، ثم بلاغة الوصفي وقدرته على التعجيب والتقييم الضمني والتكييف [3] "

وكلما هيمنت على النص الرحلي هذه الخصائص الأسلوبية،والعناصر الجمالية وتلك الأسئلة الثقافية، كان أدب رحلة بامتياز، لأنه يتمثل خصائص نص الأدب.

وقد بحث سعيد يقطين خصائص خطاب الرحلة على مستوى:

- البناء (الاستباق والاسترجاع)
- المتكلم والخطاب
- اشتغال السرد والوصف

---

* – الرحلة

– أدب الرحلات

– الأدب الجغرافي.....

[1] – المرجع نفسه ، ص 176.

[2]– شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (د ط)، 2002، ص 39

[3]– المرجع نفسه، ص 9.

إن البحث في خصائص خطاب الرحلة يمكن المشتغل في الدراسات الأدبية من الإجابة عن سؤال: ما الذي يجعل من نص رحلي ما نصا أدبيا؟

وقد عمل سعيد يقطين على بحث هذا السؤال فتوصل إلى نتيجة مفادها أن الخطاب هو جسر الرحلة إلى الأدب ، فكلما توفر الخطاب على جوانب فنية وجمالية وأدبية نكون أمام نص رحلي أدبي .وعليه فالاشتغال بالخطاب يمكن دارس الأدب من إماطة اللثام عن الجواهر الأدبية التي تزخر بها نصوص الرحلة، والتي ظلت مغيبة ردحا من الزمن.فنص الرحلة يتشكل من مادة (المضمون) وخطاب (طريقة تلفيظ المادة) وإذا كانت المادة قد أخذت نصيبها من الدراسة في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية " نبادر إلى تسجيل أن تغييب الجوانب الفنية والتقنية والجمالية ، من جهة، ليس له ما يسوغه ن وبالأخص في عمل الدارس الأدبي الذي عليه أن يحدد موضوعه بدقة، والذي لا يمكن أن يكون بالضرورة هو الرحلة، ولكن خطابها [1] "

إن الاشتغال بالخطاب يمكن دارس الأدب من ضم نص جديد إلى دائرة الأدب، كما يمكن الناقد الأدبي من رصد خصائص الكتابة الرحلية ماضيا وحاضرا والوقوف عند التغيرات التي لحقت خطاب الرحلة وهذا يمكن من " وضع اليد على التطور الذي عرفته لغة الكتابة في خطاب الرحلة [2]" فإذا تحقق هذا أمكننا حينئذ الحديث عن نظرية النظم في أدب الرحلة .

في البدء كانت المثاقفة/ قراءة في وظيفة المثاقفة في أدب الرحلة:

أدب الرحلة نص المرويات السردية الكتابية التي " تعنى بتمثيل عالم ذي مرجعيات متنوعة ، بما في ذلك تفاصيل المكان والزمان وملامح الشخصيات وأنظمة الحدث [3] " وقد عني أدب الرحلة عناية كبيرة بالتعريف بهوية الآخر، فكان المرآة العاكسة لتاريخ الأمم وأداة التواصل بين الأنا والآخر، أو هو لحظة لقاء الأنا/ المؤتلف بالآخر/ المختلف الذي يترجم في فعل الكتابة. الأنا بما تحمله من حضور وذاكرة، والآخر بما يحمله من اختلاف وغيرية.

إن أدب الرحلة يحقق انفتاح الأنا على الآخر ومن ثم انفتاح الفكر الانتمائي للأنا على الفكر الغيري للآخر، وهنا يحصل التثاقف والتواصل بين الثقافات المختلفة ، وتتعرف الثقافات بعضها على بعض وهو ما يحملنا على القول : في البدء كانت المثاقفة .

---

[1]- سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات ، ص 193.

[2]- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3]- عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان/ الدار البيضاء- المغرب، ط1، 2003، ص 7.

إن نص الرحلة يضع الأنا ذاتا متميزة تؤمن بالتعددية الثقافية وقبول الآخر في غيريته. لكن ألا يحصل أن تقع الأنا- وهي تصف الآخر- تحت تأثير نزعة التمركز حول الذات؟ فالذات في لقائها بالآخر لا تستطيع التجرد المطلق من مفاهيم الحضور ، فهي لا تستطيع التفكير في الآخر دون ذاكرة الذات. فهل يحملنا هذا على اعتبار التاريخ في نص الرحلة تاريخا متخيلا لا أكثر؟ ومن ثمة لا تعدو الحقيقة في نص الرحلة إلا أن تكون حقيقة متخيلة أملتها ذاكرة الذات" فتتشابك المخيلة بالتاريخ والواقع بالسحر { وتنتفي } إمكانية تحديد الواقع خارج إطار التخيل، والتاريخ خارج إطار السرد [1] "

أدب الرحلة نص السرديات :

يعد الاهتمام بالمفاهيم والمصطلحات من أولويات البحث العلمي لما لهذا الجانب من أهمية في ضبط " التعامل في الحياة اليومية والعملية ، وفي بناء النظريات والمناهج والنماذج في الحياة العلمية [2]"

وحتى يعمق البحث في مدلول المصطلح، وجب على المشتغلين في حقل البحث العلمي أن يتبينوا التطورات الدلالية المختلفة للمصطلح . فكم هي كثيرة تلك المصطلحات التي استعملت استعمالات بسيطة لكن مدلولها اكتسب مع الزمن إضافات جديدة وخطيرة.مثالنا في ذلك "كلمة السرد ومشتقاتها: السردية والسرديات والاختلاقات السردية... ذلك أن وراء معناها المباشر، وهو حكي حكاية، يختفي مدلولها الخطير المتخصص الطارئ. السرد في السياق الجديد، هو تشكيل عالم متماسك متخيل، تحاك ضمنه صور الذات عن ماضيها ، وتندغم فيه أهواء، وتحيزات، وافتراضات تكتسب طبيعة البديهيات ، ونزوعات، وتكوينات عقائدية يصوغها الحاضر بتعقيداته بقدر ما يصوغها الماضي بمتجلياته وخفاياه..كما يصوغها، بقوة وفعالية خاصتين، فهم الحاضر للماضي وأنهاج تأويله له. ومن هذا الخليط العجيب ، تنسج حكاية هي تاريخ الذات لنفسها وللعالم، تمنح طبيعة الحقيقة التاريخية وتمارس فعلها في نفوس الجماعة وتوجيه سلوكهم وتصورهم لأنفسهم وللآخرين، بوصفها حقيقة ثابتة تاريخيا . وتدخل في هذه الحكاية، أو السردية ، مكونات الدين، واللغة، والعرق، والأساطير والخبرة الشعبية، وكل ما تهتز له جوانب من النفس المتخيلة... [إن ما] يمثل الأمة وتاريخها، في وعي الذات الجماعية، لا يخرج بهذا المعنى عن كونه متخيلا [3] " بهذا يكون تاريخ الأمم تاريخ السرد، السرد بما هو تلفيق واختلاق.

لقد شكل السرد معرفة الذات عن ذاتها وعن الآخر، لكنها معرفة مشوبة بالتلفيق والاختلاق. إن هذا التصدير الجديد والخطير لمصطلح سرد سرديات ...يضع الخطاب السردي موضع المساءلة.

---

[1]- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية ، ترجمة كمال أبي ديب، دار الآداب، بيروت،ط2، 1998،ص 16.

[2]- محمد مفتاح: المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط2،2010،ص 5.

[3]- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية ، ص ص 16، 17

وقد استحوذ هذا المعنى الجديد لمفردة السرد على اهتمام الباحثين فراحت الدراسات المعاصرة تسلط الضوء على العلاقة بين السرديات وأنماط تمثيل الآخر وصور تنميطه، وقوة الإنشاء، وأبرز من نحا هذا المنحى من المعاصرين نذكر؛ إدوارد سعيد، عبد الله إبراهيم نور الدين أفاية، ... فهؤلاء بعثوا في النقد المعاصر روحا جديدة . تمثلت في مساءلة النصوصالسردية مساءلة نسقية؛ بالبحث في الأنساق المضمرة للنصوص.لأن النصوص لا تحمل الوجه الجمالي فحسب، بل تبطن أنساقا ثقافية خطيرة يكون لها أكبر الأثر في بلورة الممارسات الثقافية .

لقد تغيرت النظرة إلى الأدب، وإلى اليقينيات التي سنتها المؤسسة الأدبية ردحا من الزمن، وأضحت الممارسة النقدية تكشف عن " أشياء أخرى من وراء ومن تحت أدبية الأدب [1] " من أجل ذلك ، يجب أن " نعود إلى الأعمال العظيمة ولكن مع رغبة في قراءتها بتواضع شديد ... وذلك من أجل وضع الأسئلة عنها وحولها، عن المؤسساتية وعن الطبقية والمصالح والاستبعادات والأفعال والأنماط [2] "

هي دعوة إذن لدحض أسطورة الأدب البريئ، وبناء وعي جديد بالنصوص يسائل المضمر والخفي.من هنا نسائل أدب الرحلة مساءلة نسقية؛ فهل نطمئن لهذا الأدب ونحتفي به لأنه من أوائل النصوص التي احتفت بالآخر في مختلف تجلياته، أم نرتاب من أدب الرحلة لأن الحقيقة المطلقة أكبر من أن نكتبها وأكبر من أن يحتويها النص ؟

إن ما نحسبه حقيقة ليس إلا سرديات كبرى غذاها الخيال وآمن بها العقل . فلا وجود في هذا العالم لحقيقة مطلقة. فالحقيقة " لم تعد تطابقا بين الفكرة ومرجعها أو كشفا نهائيا عن نظام الواقع – إنما حقيقة تخضع بالضرورة للتاريخ والنسبية ، وتظل محدودة بمجال صلوحيتها [3] ".هذا يجعلنا ننفي عن نص الرحلة الموضوعية المطردة، والدقة المتناهية والحقيقة المطلقة، ونعتبر تاريخ الأمم في نص الرحلة سرديات متخيلة تنسج حكايا مختلقة عن ثقافة الآخر.

إن جزءا من أدب الرحلات يظهر نقيض ما يبطن ، فالظاهر؛ ذات تتحاور مع الآخر في نصوص تحتوي الآخر وتتفاعل معه ، أما المسكوت عنه ؛ فتمثيلات خيالية ،كان لها أكبر الأثر في تغذية الأهداف الاستعمارية ؛ بتقديم صورة دونية عن الآخر قصد استعماره ، وقد كان هذا حال جزء كبير من أدب الرحلات الصادر عن أوروبا الحواضرية " فحين آل الأمر إلى ما يتعلق بما يقع خارج أوروبا الحواضرية ، اعتمدت الآداب وحقول التمثيل – من جهة أولى: الرواية والتاريخ ، وأدب الرحلات والرسم؛ ومن

---

[1] – عبد الله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت– لبنان/ الدار البيضاء– المغرب،ط2، 2001، ص 13.

[2] – المرجع نفسه، ص 35.

[3] – السيد ولد أباه: التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط2، 1425هـ- 2004م، ص 47.

جهة ثانية: علم الاجتماع، والكتابة الإدارية أو المكاتبية، وفقه اللغة، والنظرية العرقية- على قوة أوروبا ومقدرتها على استحضار العالم غير الغربي إلى < مجال> التمثيلات، من أجل التمكن من رؤيته ، ومعرفته معرفة متقنة، وفوق كل شيء ، من أجل القبض عليه والاحتفاظ به[1] "

فهل يجعلنا هذا الحكم نعلن أنه في البدء كان الصراع وأن جميع الثقافات إنما " تميل إلى صنع تمثيلات للثقافات الأجنبية [حتى] توفر سبيلا أفضل لمعرفتها بإتقان أو السيطرة عليها بطريقة ما [2] "

لا يخلو فعل الكتابة من إيديولوجيا مبطنة وأنساق مضمرة، فالكتابة غير بريئة ، هذا يحتم علينا التمييز بين الحقيقة في النص والحقيقة في الواقع. وإذا "كانت الكتابة في حد ذاتها سجينة شبكة شائكة من العلاقات السلطوية [3] " فإن أول سلطة قد تقع في شراكها الأنا – وهي تصف الآخر- نزعة التمركز حول الذات وإقصاء الآخر وتهميشه حتى تتمكن من إشباع نزعة التعالي فيها.

السرد العجائبي في أدب الرحلة . مقاربة ثقافية

راج مصطلح العجائبي fantastique في سوق الدراسات الأدبية والنقدية في السنوات الأخيرة، وراح النقد يبحث تجلياته في الخطابات الأدبية.لكن الملاحظ أن المشتغلين في حقل العجائبي لم يتفقوا على تعريف جامع مانع له،لأنه مصطلح عائم منفتح على الدلالات الطارئة، وما زاد من ضبابية مصطلح العجائبي تقاطعه مع مصطلحات قريبة منه من مثل: العجيب، الغريب، المدهش.

اعتبر تودوروف العجائبي جنسا أدبيا وعده آخرون طريقة في الحكي.إلا أن ما يدعو إلى السؤال هو إمكانية الحديث عن الحقيقة في السرد العجائبي. فالنص يبنى على مظاهر ثلاث هي: اللفظي والتركيبي ، والدلالي.

ويعتبر المستوى الدلالي " من أكثر المستويات تعقيدا لأنه يؤسس للاشتغال على محمولات الأثر الأدبي...إن هذا المستوى يبحث في الكيفية التي يدل النص بها على موضوعاته[4] " وهنا يطرح السؤال الدلالي بقوة. فأمام الانتشار الواسع للسرد العجائبي في نص الرحلة نتساءل عن إمكانية البحث عن الحقيقة . فهل نعتبر العجائبي وظيفة جمالية خالصة وبهذا نعزز البحث في خصائص خطاب الرحلة ، أم نعتبره رؤية للوجود، وهنا نبحث في دواعي السرد العجائبي في كل نص رحلي؟

---

[1] – إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية ، ص 166.

[2] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3]– فتحي التريكي: الفلسفة الشريدة دراسات في الفلسفة المعاصرة، مركز الإنماء القومي، لبنان، د.ط، د. ت ،ص56

[4]– حسين علام: العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، منشورات الاختلاف/ الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر/ لبنان، ط1431،1هـ- 2010م، ص 14.

حظي الأدب العجائبي بعديد المقاربات في الحقل الثقافي الغربي؛ فكان محط المعاينة التاريخية والدلالية، والبنيوية، والسيكولوجية ، والسيميوطيقية.[1] ويدل هذا دلالة واضحة على أن العجائبي يتجاوز كونه ظاهرة أدبية صرفة إلى كونه ظاهرة ثقافية تستدعي التأويل.

إذا كان ذلك كذلك كيف نفسر الانتشار الواسع للسرد العجائبي في أدب الرحلة؟ ما هي الأنساق الثقافية التي يضمرها السرد العجائبي في أدب الرحلة؟

تطغى في أدب الرحلة مظاهر الخرافة والأسطورة، التي يصنعها السرد العجائبي. هذ المظهر الذي اعتبره البعض نقيض الحقيقة،واعتبره البعض الآخر سرا من أسرار النص الرحلي .ف " المتخيل في الرحلة ليس كذبا وإنما هو عنصر فني ورؤية للأشياء تتضمن صيغا للتعبير والتأويل وموقفا من العوالم التي يراها فتصطدم بتصوراته القبلية وتتداخل ، وبالتالي تصبح الرحلة ذريعة للتعبير عن آراء الرحالة وتأملاته الموصولة بأحلامه وخيالاته [2] "

هذا ما جعل أدب الرحلة تمتزج فيه- في أحايين كثيرة- " المعلومات بالمغامرات، والواقع بالأساطير، ذات الكاتب ومشاهداته، التجربة والحكمة مع الخيال، السحر مع الغرائب والعجائب [3] "

كل هذه العناصر مجتمعة تجعل أدب الرحلة يحوز السمة الجمالية – التي لا يخلو منها نص الأدب– ولا يخفى علينا ما لهذه الخصائص من دور في استمالة القارئ؛ فالنفس تتوق إلى سماع غرائب وعجائب الأخبار.

إلا أن السرد العجائبي له معان خافية؛ فالظاهر جمالية بريئة، والباطن ذات متعالية تلغي الاختلاف وتنزله منزلة العجيب والغريب. وبهذا استحال الاختلاف في أدب الرحلة عجيبا وغريبا. فالعجيب إذن ليس إلا ثقافة الآخر/ المغايرة لثقافة الأنا. والتي رفضت الأنا قبولها كما هي فألبستها لبوس العجيب. وبالرجوع إلى المعنى اللغوي للفظ العجيب نجده لا يخرج عن معنى إنكار الشيء لقلة اعتياده على النفس. أما في أدب الرحلة فالعجيب يجمع " وكأن العجيب لا يفي بالحاجة فجيء به جمعا [4] " وأضيفت إليه ياء النسبة بخلاف القاعدة النحوية المعروفة التي مفادها" إذا نسب جمع باق على جمعيته جيء بواحده ونسب إليه [5] "

---

[1]- المرجع السابق، ص 44.

[2]- شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 373

[3]- فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، جمادى الأولى 1423هـ- يوليو 2002م، ص 13.

[4]- عبد الملك مرتاض: حوار مع الناقد والروائي عبد الملك مرتاض، مجلة عمان، ع 112، 2004، ص 14.

[5]- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: المفصل في صنعة الإعراب ، ت: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1999، ص 260.

إن انتشار السرد العجائبي في تضاعيف نصوص أدب الرحلة يجعل تاريخ الأمم معرضا لأنواع الكذب والتزييف . ذلك أن العجائبي ابن المخيلة " وكان ديكارت يعتقد أن المخيلة تشوش الفكر، وتحول دون أن يباشر العقل عمله بالطريقة الصحيحة [وقد وقف] محمد عبده موقفا مشابها ، حينما [يحذر] بقوة من الأثر الفادح لكتب الأكاذيب الصرفة التي تتحرك في أفق مشبع بالتخيلات، ويثني على منع نشر كتب الفروسية العربية ، وفي مقدمتها السير الشعبية التي صورت تخيليا بطولات الفرسان كعنترة بن شداد، وأبي زيد الهلالي، وسيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة، وغيرهم [1]"

هكذا، يكون السرد العجائبي في أدب الرحلة رؤية في الوجود تعكس الجانب النفسي للرحالة الذي يرى في كل ثقافة مغايرة لثقافته مصدر الدهشة والغرابة والعجب. لهذا يجب على القراءة المعاصرة أن تبحث الأنساق الثقافية التي تتخفى تحت مضلة جمالية العجائبي في أدب الرحلة.

قائمة المصادر والمراجع:

- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: المفصل في صنعة الإعراب ، ت: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1.

- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية ، ترجمة كمال أبي ديب، دار الآداب، بيروت،ط2، 1998.
- حسين علام: العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، منشورات الاختلاف/ الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر/ لبنان، ط1431،1هـ- 2010م.
- سعيد جبار: من السردية إلى التخيلية بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، دار الأمان، الرباط، ط1، 1434هـ- 2013م.
- سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات ، دار الأمان، الرباط، ط1433،1هـ- 2012م.
- السيد ولد أباه: التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط2، 1425هـ- 2004م.
- عبد السلام بنعبد العالي: ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1994.
- عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان/ الدار البيضاء- المغرب، ط1، 2003.

[1]- عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، ص 299.

- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان/ الدار البيضاء- المغرب،ط2، 2001.
- عبد الملك مرتاض: حوار مع الناقد والروائي عبد الملك مرتاض، مجلة عمان، ع 112، 2004.
- فتحي التريكي: الفلسفة الشريدة دراسات في الفلسفة المعاصرة، مركز الإنماء القومي، لبنان، د.ط، د. ت
- فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، جمادى الأولى 1423هـ- يوليو 2002م.
- محمد مفتاح: المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط2010،2.
- يوسف وغليسي: في ظلال النصوص تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر، الجزائر، ط1، 1430هـ- 2009م.